تجديد الفكر الإسلامى
عند محمد إقبال

د. عبد المقصود عبد الغنى *

يعتبر المفكر المسلم محمد اقبال واحداً من أبرز أعلام الفكر الإسلامى الذين أسهموا بجهد مشكور فى إحياء هذا الفكر وتحريره من الجمود الذى كان قد سيطر عليه والعمل على إثرائه ومده بزاد جديد يكفل له التطور ويحقق له الملائمة لروح العصر ومسايرته للحيـــاة .

ولد محمد إقبال سنة ١٨٧٧ م بإقليم البنجاب فى شبه القارة الهندوباكستانية وقد أصبح هذا الإقليم تابعاً لباكستان بعد تقسيم شبه القارة سنة ١٩٤٧ م وكان رحيله عن الدنيا سنة سنة ١٩٣٨ م وفيما بين هذين التاريخين كانت رحلة حياته التى حفلت بالعمل الجاد والجهد البناء .

نشأ إقبال فى بيت متدين ، وتربى على الفضيلة ، وشب على الخلق وطبع على التقوى والإيمان والإخلاص ، كان والده يحثه على قراءة القرآن ويقول له : اقرأ القرآن كأنما أنزل عليك ، كما كان يقول له : كن يابنى برعماً مزهراً فى غصن الملة المحمدية ، وكن زهرة تحيا بنسيم يقبل من ربيع المصطفى .

كان هذا الذى نشأ عليه فى رحاب الأسرة مصدر قوته ومنبع حكمته وزاداً حفظه فى حياته من الانسياق وراء مباهج الحيـــاة . .

وقد حرص إقبال على أن ينهل من ثقافة عصره وأن يتزود منها بخير الزاد ، واستطاع

---

* مدرس بقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم ، جامعة القاهرة .

بفضل مواهبه العقلية أن يجمع بين الثقافة الدينية والثقافة المدنية ، ذلك أنه أقبل على الثقافة الإسلامية فى بلاده وخاض فى غمارها حتى تخرج فى كلية الحكومة بلاهور ، بل عكف على البحث والدراسة حتى نال شهادة « MA » التى تعادل شهادة الماجستير (١) .

ثم قصد إلى الغرب لينهل من ثقافته ومعارفه ويطلع على حضارته ومدنيته ، وفى الفترة التى عاشها إقبال فى الغرب متنقلا ما بين لندن وألمانيا لم تمنعه دراسته من العمل من أجل الإسلام فقد قام بإلقاء محاضرات عنه وعن فلسفته وحضارته موضحاً فيها مزايا الإسلام ، ومفنداً الشبهات التى يثيرها خصومه ضـــده .

وكان أيضاً يتأمل فى حضارة الغرب وفلسفته دون أن تخدعه تلك الحضارة ببريقها أو يقع أسيراً لها ، بل إنه استطاع أن ينفذ إلى الأساس الذى قامت عليه ويدرك ما قد ينجم عنه من أخطار ، ومن ثم فإنه حذر الغرب من هذه الحضارة قائلا لأهله « ياساكنى ديار الغرب ، إن الذى توهتموه ذهباً خالصاً سترونه زائفاً ، وإن حضارتكم ستبخع نفسها بخنجرها ، فالعش الذى يبنى على غصن رقيق لا يثبت » .

عاد إقبال إلى وطنه بعد أن نال شهادة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة ميونخ بالمانيا سنة ١٩٠٨ عن رسالته « تطور الميتافيزيقا فى إيران » وكان لابد أن يدخل مرحلة جديدة فى فى حياته ، مرحلة حافلة بالعمل والإنتاج ، ، وقد شارك فى كثير من الميادين ، ميدان التدريس وميدان المحاماة وميدان العمل السياسى ، ومما يذكر أنه كان صاحب فكرة تقسيم شبة القارة الهندوباكستانية إلى الهند وباكستان حتى يكون للمسلمين كيان خاص بهم يستطيعون أن يمارسوا فيه حقوقهم وأن يرفعوا شعائر دينهم بحرية ، وقد تحققت هذه الفكرة سنة ١٩٤٧ م بعد وفاته على يد القائد « محمد على جناح » الذى قال عنه : « كان شاعراً منقطع النظير ، طبق صيته الآفاق وستبقى كلماته حية أبداً وإن مساعيه لأمته وبلده لتضعه فى صف أكبر كبراء الهند ، وإن وفاته اليوم لتعتبر خسارة للهند عامة وللمسلمين خاصة » (٢)

والحق أن إقبالا يعتبر — بحق — من الشخصيات الجادة التى سجلت صفحة مشرفة فى تاريخ الفكر الإسلامى ، وصنعت تاريخاً حافلا بالمعانى الإنسانية النبيلة فلم يخرج من الدنيا كما جاء إليها ، ولكنه حاول أن يحيى أمة ويبعث شعباً ويرد للإنسان كرامته ، ويرسم منهجاً لحياة فاضلة ويكشف عن تهافت الإلحاد ، ويرفع راية الإصلاح والتجديد ، وسنحاول فى هذا المقام أن نلقى الضوء على موقفه من قضية تجديد الفكر الإسلامى .

قضيـــة التجديـــد

تعتبر قضية التجديد من القضايا البارزة فى فكرنا الإسلامى عبر مراحله المختلفة ، فقد رفع راية الإصلاح والتجديد (٣) ، كثير من رواد فكرنا السابقين من أمثال الإمام الغزالى وشيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ محمد بن عبد الوهاب والشاه ولى الله الدهلوى والسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وغيرهم .

ولا شك فى أن إقبالا قد اطلع على أفكار هؤلاء السابقين وأفاد منها ، ولكن ليس من الصواب الاعتقاد بأن أفكاره مجرد صدى لآراء من سبقوه ، ذلك أنه احتفظ إزاءها بأصالته ، لأن عبقريته تأبى إلا أن تكون أصيلة تستمد طاقاتها من مواهبه وتفكيره وعلى أى حال فينبغى أن نوضح مفهوم التجديد فى نظر إقبال لأن التجديد قد لحقه كثير من الانحرافات . .

أولا — مفهوم التجديد :

التجديد — عند إقبال — ليس ألا محاولة لتقدير فهم جديد لمبادىء الإسلام وعقائده فى ضوء ما تمخض عنه تمحيصنا لنتائج الفكر الغربى الحديث ، ولعل هذا هوما يتضح لنا من قول إقبال :

« لقد حاولت بناء الفلسفة الإسلامية بناءاً جديداً ، آخذاً بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام ، إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور فى نواحيها المختلفة »(٤)

هذه هى حقيقة التجديد الذى يريده إقبال ، إنه التجديد الذى ينطلق من الإسلام وتراثه العقلى ، مع استفادته بنتائج الفكر الحديث بعد تمحيصها تمحيصاً يكشف عن اتفاقها مع مبادىء الإسلام وعدم اصطدامها بها .

ومعنى هذا أنه عرض الحقائق القديمة فى ضوء الأفكار الجديدة ، وهو بذلك يختلف عن التجديد الذى يهدف إلى تقليد الفكر الغربى الحديث تقليداً أعمى والأخذ بمبادئه ونظمه دون فحص أو تمحيص ، كما يختلف عن التجديد الذى يقتصر على تخليص مبادىء الإسلام وتطهيرها من البدع والانحرافات التى لحقتها دون أن يحاول السير بها إلى الإمام ودفعها إلى حياة المسلم المعاصر .

وينبغى أن ننبه إلى أن التجديد فى نظر إقبال وفى الإسلام عامة يختلف عن التجديد أو الإصلاح الذى ظهر فى أوربا على يد الراهب الألمانى « مارتن لوثر » ذلك أن التجديد هناك تجديد فى العقيدة ذاتها وإصلاح فى الشريعة نفسها (٥) أما التجديد عندنا فهو تجديد فى الفهم وليس تجديداً فى الشرع ، فهناك أمور ثابتة من حيث المثال ، ولكنها متطورة متغيرة من حيث الواقع ، والتجديد إنما يصيب أمثلة الواقع المشكل لجزء من الحقيقة ، فما يطرأ من تجديد فى فكرنا الإسلامى لا ينال الأصول الثابتة ، وإنما يتصل بالفروع والجزئيات والمفاهيم التى هى بطبيعتها عرضة للتغيير والتعديل ، مسايرة لمتطلبات العصر وتطور الحيـــاة .

إن الإسلام قد رسم مخططاً عاماً وتوجيهاً شاملا للحياة الإنسانية وهذا المخطط ثابت وأصيل يقبل — بسعته وشموله — العديد من النماذج والصور والأنماط فى المجال التطبيقى دون أن يتخلف عن تطوره ، لأن هذا المخطط أو النظام الذى رسمه الإسلام للحياة الإنسانية يعتبر أكثر الأنظمة التى قدمت لهذا العالم مرونة وأوفاها قبولا لما لا نهاية له من التطور والتقدم .

ومن ثم فإن إقبالا كان دقيقاً عندما عبر عن حركته بـ « إعادة بناء الفلسفة الإسلامية » دون التعبير بالإصلاح الدينى أو تجديد الدين ، لأن أية محاولة إنسانية تدور فى محيط الإسلام فإنها لا تتعلق بتعديل مبادئه طالما كان مصدره وهو القرآن الكريم له صفة الجزم والأبدية ، وأية حركة إصلاحية أو تجديدية فى مجال الإسلام بعد ذلك هى إذن فى دائرة الفكر النابع منه وفى دائرة فهم المسلمين لمبادئه .

ولعل من الواضح أن إقبالا يقف موقفاً متزناً ودقيقاً يتميز عن موقف المتعصبين المتشددين الذين تزعجهم فكرة التجديد فيقاومونها فى أى مستوى مهما كان — فكراً أو وجداناً أو سلوكاً أو عملا — وكأنما الحياة قد صبت فى قوالب محددة ثابتة صاغهالهم أسلافهم فلا ينبغى أن تبدل أو تغير .

كما يتميز موقف إقبال عن موقف المتطرفين الذين يضيقون بالنظام ويتقلبون فى كل واد ويجرون وراء كل ناعق ولا يحماون لتراثهم الذى يشكل شخصيتهم وأصالتهم إكباراً أو إعزازاً .

ولا ريب فى أن هؤلاء وأولئك قد جانبوا الحق وجاوزا الحكمة ونأوا عن الصواب ، لأن موقف المتعصبين يجعل المسلم منعزلا عن العصر لا يقدر على فهم أحداثه ومشكلاته ، وموقف المتطرفين يجعله ضائعاً تائها تابعاً ذليلا لا يعرف له تراثاً ولا يحس باصالته وذاتيته .

إن المسلم المعاصر يحتاج إلى فكر يجمع بين الأصالة والمعاصرة حتى يرتبط بدينه وبتراثه الأصيل ، وحتى لا يتخلف عن العصر وأحداثه ، وهذا ما حاوله إقبال فى تجديده الذى أراده ، والذى أصبح ضرورة ملحة ، وهذا يدعونا إلى الحديث عن دوافع التجديد فى رأى إقبال . .

ثانياً — دوافع التجديد ومبرراته :

الواقع أن التجديد — فى عصر إقبال — كان ضرورة ملحة من أجل الملاءمة والتنسيق بين روح العصر والفكر الإسلامى الأصيل وتراثه فى خطة تجديديه شاملة توائم بين تراثنا الذى تتمثل فيه أصالتنا وذاتيتنا ، وبين الفكر الحديث الوافد الذى لا يمكن تجاهله تماماً .

ومن هنا فإن إقبالا آمن بالتجديد ، لأنه يرى من ناحية أن الجمود على القديم ضار فى الدين كما هو ضار فى أية ناحية من نواحى النشاط الإنسانى ، فهو يقضى على حرية الذات المبدعة ويسد المنافذ الجديدة للإقدام الروحانى ، ولأنه يرى من ناحية أخرى أنه ليس فى أصول تشريعنا ولا فى بناء مذاهبنا ما يسوغ التقليد للقديم والجمود عليه (٦) .

ولهذا فانه دعا المسلمين إلى التجديد وقرر أن العالم الإسلامى وهو مزود بتفكير عميق نفاذ وتجارب جديدة ينبغى عليه أن يقدم فى شجاعة على إتمام التجديد الذى ينتظره .

على أن دوافع التجديد ومبرراته كثيرة تتمثل أهمها فيما يلى :

١ — الفكر الأوربى الحديث وما ترتب عليه من نتائج .

٢ — طبيعة الفكر الإنسانى .

٣ — طبيعة الإسلام ومسايرته لطبيعة الحياة المتغيرة .

وإذا كان المجال لا يسمح بتوضيح هذه الأمور فلابد وأن نلقى الضوء عليها فيما يأتى :

١ — الفكر الحديث وما ترتب عليه :

لقد عرف المسلمون الفكر الغربى بعد أن اتصل الغرب بالشرق ، خاصة وأن الغرب حاول أن يغزو بفكره عقول المسلمين بعد أن غزا بلادهم بقواته بهدف القضاء على الشخصية الإسلامية وأهم مقوماتها . وقد نشط المبشرون والمستشرقون فى هذا المجال زاعمين أن الإسلام هو السبب فى تأخر المسلمين وأن السبيل لنهضتهم هو نبذ تراثهم والأخذ بالفكر الغربى الذى قام على تجارب عملية واسعة (٧) .

وهذا الفكر الغربى الذى يدعى المسلمون إلى الأخذ به فكر ينطوى على الإلحاد وعلى محاربة الدين ولا يعترف بالقيم الروحية ، لأنه لا يؤمن إلا بالمادة ولا يعترف بالروح ، إنه يسلب من الإنسان إيمانه ويفقده الجانب الروحى الذى يتميز به ، وهذا ما يشير إليه إقبال فى قوله « الرجل العصرى بما له من فلسفات نقدية وتخصص علمى يجد نفسه فى ورطه ، فمذهبه الطبيعى قد جعل له سلطانا على قوى الطبيعة لم يسبق إليه ، ولكنه قد سلبه إيمانه فى مصيره هو » .

ثم يؤكد ذلك ويوضحه فيقول « والإنسان العصرى قد أعشاه نشاطه العقلى وكف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة ، أى إلى حياة روحية تتغلغل فى أعماق النفس ، فهو فى حلبة الفكر فى صراع مع نفسه ، وهو فى مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية فى كفاح مع غيره ، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة ، وحبه للمال حباً طاغياً يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئاً فشيئاً ، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة ، وقد استغرق فى الواقع ، أى فى مصدر الحس الظاهر للعيان ، فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده ، وأخف الأضرار التى أعقبت فلسفته المادية هو ذلك الشلل الذى اعترى نشاطه .

والاشتراكية الملحدة الحديثة — ولها ما للدين من حمية وحرارة — قد استمدت أساسها الفلسفى من المتطرفين من أصحاب مذهب « هيجل » و أعلنت العصيان على ذات المصدر الذى كان يمكن أن يمدها بالقوة والهدف » (٨) .

وهكذا فإن الفكر الغربى الحديث قد فتح الباب للإلحاد على مصراعيه وذلك لأنه فكر مادى طبيعى يرى أن الطبيعة هى السبيل الوحيد للمعرفة الصحيحة وكل ما ليس من وحى الطبيعة — بما فى ذلك الدين — خداع ووهم وخرافة .

وقد زحف هذا الإلحاد من الغرب إلى الشرق وظهر فى ثوب العلم الحديث مما أدى إلى ظهور الملحدين فى الهند وفى تركيا وغيرهما من بلاد العالم الإسلامى ، ومن ثم لا ينبغى للمسلم أن يأخذ المسلم بالفكر الغربى حتى لا يكون مصيره مصير الأوربى الذى فقد إيمانه فى مصيره وثار على الدين والقيم الروحية .

ومن جهة أخرى ما كان المسلم يستطيع أن يعتمد على فكره الإسلامى الذى كان سائدا آنذاك وخاصة فى الهند وإيران ، لأن هذا الفكر — بما لحقه من انحرافات وبدع وبما سيطر عليه من جمود وركود — لم يكن جديراً بأن يكون مصدر توجيه للمسلم فى حياته الجديدة ، حيث إنه هو الذى أدى إلى تخلف المسلمين عن المشاركة فى السيطرة على الطبيعة ، وهو الذى أدى إلى الوضع الذى صار عليه المسلم وهو وضع الضعيف المتهيب للحياة ، النافر من الواقع ، هذا الذى وصفه إقبال بقوله :

إن المسلم الذى نشأته الصحراء وأحكمته رياحها الهوجاء أضعفته رياح العجم فصار فيها كالناى نحولا ونواحاً . . والذى كان تكبيره يذيب الأحجار انقلب وجلا من صفير الأطيار . . والذى هزأ عزمه بشم الجبال غل يديه ورجليه بأوهام الاتكال ، والذى نقشت قدمه على الأرض ثورة كسرت رجلاه عكوفاً فى الخلوة . (٩) .

والحق أن هذا الفكر الذى أدى بالمسلم إلى هذا الوضع لا يمثل حقيقة الإسلام ، وإنما هو انحراف نفذ إلى المسلمين من الفلسفة الإشراقية أو التصوف الأعجمى الذى يقوم على وحدة الوجود ، وفناء الإنسان فى الحقيقة المطلقة ، وينظر إلى المادة على أنها شر يجب تجنبها ، ويدعو إلى الانصراف عن العالم الطبيعى والقعود عن العمـــل .

ولعل هذا هو الذى جعل كثيراً من المسلمين يندفعون فى الاستجابة لدعاة التغريب الذين تبنوا الدعوة إلى الأخذ بالفكر الغربى خاصة وقد بهرتهم الحضارة الحديثة التى قامت عليه . (١٠) .

إزاء ذلك كله ، إزاء قصور الفكر الإسلامى السائد آنذاك عن أن يكون مصدر توجيه للمسلم فى حياته الجديدة ، وإزاء ما ينطوى عليه الفكر الغربى من أخطار تتمثل فى الإلحاد ، وإزاء ما ظهر من إلحاد بعض المسلمين الذين اندفعوا فى الأخذ بهذا الفكر .

إزاء ذلك كله كان لابد من التجديد فى فكرنا الإسلامى حتى نلائم بينه وبين الحياة الجديدة التى نتجت عن تقدم الفكر الأوربى وازدهار الحضارة الغربية ، دون أن نتخلى عن تراثنا الأصيل ، وعندئذ يجد المسلم زاد جديداً نابعاً من تراثه ودينه ، ومتصلا بحياته وما جد فيها من أحداث وتطورات .

٢ — طبيعة الفكر الإنسانى :

إن الذى يتأمل فى طبيعة الفكر الإنسانى يدرك أنه فكر متحرك لا يعرف التوقف ، ومن ثم فإن طبيعة الفكر تعد — فى نظر إقبال — من المبررات التى تبرر التجديد ، وتسوغه ، وذلك لأن الفكر بناء متواصل تسهم فيه الأجيال المتعاقبة من المفكرين ، فهو نسيج لم تتم خيوطه بعد ، وإن كان هناك امل فى الوصول إلى حبكته ، وتمامه . بفضل توافر الجهد الإنسانى عبر الزمان والمكان ، وليس تاريخ الفلسفة الحقيقية إلا استعراضاً لهذه الجهود المتواصلة فى إقامة هذا البناء وإكمال خيوط هذا النسيج » (١١) .

وهذا يعنى أن تطور الفكر يكاد يكون من الأمور المسلم بها ، فالفكر كما يقول إقبال « ليس له حد يقف عنده » وإنما هو جواب طواف ، محلق تارة وهابط تارة أخرى ، محلل فى موقف ومركب فى موقف آخر ، وثمرة ذلك كله اتساع آفاق المعرفة الإنسانية بالكون وبالإنسان وبمصدر وجودهما وهو الله تعالى ، وهذه الحقيقة تعنى ببساطة أنه « كلما تقدمت المعرفة وفتحت مسالك جديدة للفكر أمكن الوصول إلى آراء أخرى » وهذه الآراء الجديدة قد تكون مكملة لما سبقها من آراء فتضيف جديداً إلى رصيد المعرفة ، وقد تثبت بطلان أو خطأ الأفكار السابقة فتهدمها وتحل محلها ، وليس ثمة شك فى أن ذلك يتطلب منا — كما يقول إقبال — أن نرقب فى يقظة وعناية تقدم الفكر الإنسانى ، وأن نقف منه موقف النقد والتمحيص ، وهذا بدوره يتيح للعقل أن يقف موقف الموجه لمسار الفكر ونتائجه ، كما يتيح للفكر السلامة من الوقوع فى الأخطاء . (١٢) .

وهكذا فإن الفكر — بطبيعته هذه التى تنطوى على التجديد والتطور — يعتبر من المبررات التى تسمح لنا بالتجديد ، بل تستلزمه .

٣ — طبيعة الإسلام :

يرى الإسلام أن الحياة متحركة لا تعرف الوقوف ولا الركود ، وكان لابد لها والأمر كذلك من إنسان يتابعها فى حركتها ويسايرها فى تطورها ، ومن ثم فإن الإسلام قد تضمن من المبادئ ما يسمح لهذا الإنسان بل ما يدفعه إلى الحركة التى بها يستطيع أن يتابع حركة الحياة حتى لا يتخلف عن ركبها .

إن الإسلام — وإن كان مؤسساً على عقائد ثابته وحقائق خالدة — فإنه حافل بالنشاط زاخر بالحياة ، له من الحيوية معين لا ينضب وعنده لكل طور من أطوار الحياة جديد .

وقد حاول إقبال أن يوضح ذلك فتحدث عن مبدأين فى الإسلام يدفعان الإنسان إلى الحركة ، هذان المبدآن هما :

(أ) تغير العالم وحركته ونمـــوه .

(ب) حركة الإنسان وملاحقته لركب الحياة .

أما عن المبدأ الأول فإن إقبالا يصرح بأن العالم فى نظر القرآن مرتب على نحو يجعله قابلا للزيادة والامتداد ، قال تعالى « يزيد فى الخلق ما يشاء » (فاطـر : ١) .

فليس هذا العالم — فى رأيه — كتلة . وليس إنتاجاً مكتملا . وإنما هو حقيقة لم تقع كلها ، بل فى سبيل وقوعها .

يقول إقبال « والرأى عندى أنه ليس أكثر بعداً عن نظرة القرآن من القول بأن العالم تنفيذ فى سياق الزمان لخطة سبق وضعها . فالعالم فى نظر القرآن قابل للزيادة ، هو عالم ينمو ، وليس صنعاً مكتملا خرج من يد صانعه منذ حقب بعيدة ، وهو الآن ممتد فى الفضاء » (١٣) .

وإذا كان العالم قابلا للزيادة فإنه يكون فى حركة دائمة وتغير مستمر ، وهذا التغير يحملنا على أن تلائم بين أنفسنا وبين مقتضيات هذا التغير ، ويثير فينا قوة الدفع للتغلب على ما يجد من ظروف جديدة . « والجهد العقلى الذى نبذله للتغلب على ما يقيمه العالم من عقبات فى سبيلنا يشحذ بصيرتنا فيهيؤنا للتعمق فيما دق من نواحى التجربة الإنسانية الأخرى ، فضلا عن أنه يمد فى آفاق الحياة ويزيدها خصباً وغنى » (١٤) .

ويرى اقبال أن إتجاه الفكر الإسلامى إلى تصور الكون متحركاً متغيراً متطوراً — تسرى فيه الحياة ، ممثلة للعلاقة الدائمة بين الزمان الإلهى والزمان المتجدد — قد أتاح الفرصة لإحدى النظريات الإسلامية أن تقول « بالخلق المستمر » (١٥) وهى فكرة تعنى فى نهايتها أن الكون ينمو ويزداد .

لكن فكرة التغير المستمر لا تعنى تجاهل الدوام والثبات اللذين تتصف بهما المبادئ من حيث كونها مبادئ فى مرتبة المثال ، ومعنى هذا أن مجال التغير لا يمتد إلى هذا المثل أو القيم الأصلية التى تجد منتهاها فى الذات الإلهية ، وهذا ما يعنيه إقبال بقوله « ينبغى ألا ننسى أن الوجود ليس تغيراً صرفاً فحسب ، ولكنه أيضاً ينطوى على عناصر تنزع إلى الإبقاء على القديم » (١٦) .

هذا عن المبدأ الأول وهو حركة الحياة وتغير العالم . أما عن المبدأ الثانى وهو حركة الإنسان فان إقبالا يرى أن الإسلام يدفع الإنسان إلى متابعة الحياة فى حركتها وفى تغيرها ، وذلك باشتماله على فكرتين هامتين وهما .

(أ) فكرة ختم النبوة .

(ب) وفكرة الاجتهاد .

وفكرة أو عقيدة ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم التى قررها الإسلام تدفع الإنسان إلى البحث والعمل والاعتماد على النفس فى تحصيل المعرفة ، لأنها تتضمن نفى الوصاية ، بمعنى أن الوصاية على الإنسان قد انتهت ، وأن عليه أن يحصل كمال معرفته بوسائله الخاصة فى ضوء المبادئ التى قررها الكتاب والسنة ، دون أن ينتظر من السماء إرسال نبى آخر يضع له المنهج .

يقول إقبال : « إن النبوة فى الإسلام لتبلغ كما لها فى إدراك الحاجة إلى ختم النبوة نفسها ، وهو أمر ينطوى على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على مقود يقاد منه ، وأن الإنسان لكى يحصل كمال معرفته لنفسه ينبغى أن يترك ليعتمد فى النهاية على وسائله هو » (١٧) .

أما عن فكرة أو مبدأ الاجتهاد فإنه يعتبر فى نظر إقبال ونظر كل منصف من العوامل التى تدفع إلى الحركة ومتابعة تغير العالم وتطوره بل إنه يعتبر أساس الحركة فى الإسلام ، وذلك لأن الاجتهاد وهو الذى يتيح للتشريع أن يساير أحداث العصر ومشكلات الحياة ، وهو الذى يدفع الإنسان إلى متابعة الحياة فى حركتها وفى سيرها .

وفى رأى إقبال أن تاريخ الشريعة الإسلامية وبناءها يسمحان بإمكان تفسير أصول الشريعة ومبادئها تفسيراً جديداً ، ثم يصرح بأن « التعمق فى درس كتب الفقه والتشريع الهائلة العدد ، لابد من أن يجعل الناقد بمنجاة من الرأى السطحى الذى يقول بأن شريعة الإسلام شريعة جامدة غير قابلة للتطور » (١٨) .

وهكذا فإن الإسلام — الذى صور الكون على أنه متغير قابل للزيادة ، وتضمن من المبادئ ما يدفع المسلم إلى الحركة ، ليتلاءم مع الكون فى تغيره ويتابع الحياة فى حركتها — يبرر التجديد ويسوغه ، ومن ثم فإن حركات التجديد فى الفكر والحضارة قد بدأت بالإسلام نفسه ، وبما حوى من آراء وحقائق ومواقف هى فى حد ذاتها بناء جديد على أنقاض موروثات قديمة .

وهنا نتساءل قائلين إذا كان التجديد بهذا يعتبر ضرورة ملحة فما السبيل إليه فى نظر إقبال ؟ هذا ما سنحاول توضيحه .

ثالثاً — سبيل التجديد :

إذا كان الإسلام قد تضمن من المبادئ — كما رأينا — ما يدفع الإنسان إلى التطور والحركة لمتابعة الحياة فى سيرها وتطورها ، فإن السبيل إلى التجديد هو أن نبعد عن الإسلام

ما يقف عقبة فى طريق تطوره ، وأن تزيل عنه ما أحاله إلى الجمود . ولا شك أن الذى وقف عقبة فى طريق تطوره وأحاله إلى الجمود هو سيطرة التقليد وإغلاق باب الاجتهاد ، لأن الاجتهاد هو أساس الحركة والتطور فإذا أهملنا ه وأغلقنا بابه توقف الإسلام عن الحركة فكان الاجتهاد هو الزاد الذى يضمن له الحيوية والطاقة التى تجعل النشاط يدب فى روحه .

يقول إقبال فى ذلك « السبيل الوحيد أمامنا أن ننزع عن الإسلام هذه القشرة الجافة التى أحالت إلى الجمود نظرة إلى الحياة كانت فى جوهرها دائبة الحركة والنشاط ، وأن نعيد الكشف عن الحقائق الأصلية حقائق الحرية والمساواة والاتحاد فنقيم على أساسها مثلنا العليا فى الأخلاق والاجتماع والسياسة » (١٩) .

ويذكر إقبال أن أهل السنة سلموا بالاجتهاد من ناحية إمكانه النظرى ، وذلك لأن المذاهب التى وضعها الأئمة مع إحاطتها وشمولها ليست إلا تفسيرات فردية وهى بوصفها هذا لا نستطيع الزعم بأنها القول الفصل ، ثم إن أصحاب هذه المذاهب الفقهية لم يدع أحد منهم أن تفسيره للأمور واستنباطه للأحكام هو آخر كلمة تقال ، بل لم يحاول واحد منهم إلزام أحد من المسلمين باتباع مذهبه دون غيره .

وإذا كان أهل السنة قد سلمو بالاجتهاد من ناحية إمكانه النظرى فإنهم أنكروا تطبيقه منذ أن وضعت المذاهب لأن الاجتهاد الكامل أحيط بشروط يكاد يستحيل — فى نظرهم — توافرها فى فرد واحد (٢٠) .

والنظرة الواعية الفاحصة تكشف عن وجود أسباب دفعت أهل السنة إلى هذا الموقف وجعلتهم ينكرون التطبيق العملى للاجتهاد ، ويدعون إلى التقليد ، وقد هدت هذه النظرة فيلسوفنا إلى الأسباب التى كانت وراء ذلك (٢١) وهذه الأسباب تتلخص فيما يلى :

(أ) تخوف العلماء أو أهل السنة من الحركة العقلية التى ظهرت فى الإسلام واعتبارهم هذه الحركة عاملا من عوامل الانحلال .

(ب) تطور التصوف فى جانبه النظرى وتأثره بطابع غير إسلامى ، مما أوجد نوعاً من التمرد على تخريجات الفقهـــاء .

(حـ) تدمير بغداد على أيدى « التتار » وما ترتب عليه من انحلال سياسى ، مما جعل رجال الفكر المحافظين ينكرون كل تجديد ، خوفاً من وقوع انحلال آخر ورغبة فى المحافظة على حياة اجتماعية مطردة للناس جميعاً (٢٢) .

وهذه الأسباب وإن سوغت الدعوة إلى تقليد المذاهب الفقهية القائمة فإنها لا تستطيع أن تجعل التقليد مبدأ قاطعاً ثابتاً على مر ا ! يام ، وتوقف مصدراً من مصادر التشريع المعترف بها من النبي صلى الله عليه وسلم وهو الاجتهاد .

إن الأحوال التى دعت أهل السنة إلى القول بتقليد المذاهب القائمة قد تغيرت ، وجدت أحداث وظروف جديدة ، نتيجة لتطور الفكر الإنسانى والتفاعل المستمر فى الحياة ، وهذا يبرر بل يدفع إلى العدول عن نزعة التقليد إلى فتح باب الاجتهاد وممارسته حتى تظل الحياة فى المجتمع الإسلامى سائرة على هدى دينها ومهتدية بتوجيهاته .

يقول إقبال : « بما أن الأحوال قد تغيرت ، والعالم الإسلامى يتأثر اليوم بما يواجهه من قوى جديدة أطلقها من عقالها تطور الفكر الإنسانى تطوراً عظيما فى جميع مناحيه فإنى لا أرى موجباً للتمسك بهذا الرأى » (٢٣) أى إغلاق باب الاجتهاد والتمسك بالتقليد .

وعلى هذا فإن ما ينادى به الجيل الحاضر من أحرار الفكر فى الإسلام من تفسير أصول المبادئ التشريعية تفسيراً جديداً على ضوء تجاربهم ، وعلى هدى ما تقلب على حياة العصر من أحوال متغايرة ، هو رأى له ما يسوغه كل التسويغ كما يذكر إقبـــال .

وقد يفهم البعض من هذا أن التجديد فى نظر إقبال هو التجديد فى القوانين والمبادئ التشريعية لمسايرة التطور ، ومع تسليمنا بأن هذا الفهم صحيح إلى حد كبير فإننا نؤكد أن التجديد عنده تجديد شامل فى الفكر سواء أكان يتصل بالعقيدة أم بالشريعة ، وهذا ما يمكن أن يستنبط من قوله « إن حكم القرآن على الوجود بأنه خلق يزداد ويترقى بالتدريج ، يقتضى أن يكون لكل جيل الحق فى أن يهتدى بما ورثه من آثار أسلافه من غير أن يعوقه ذلك التراث فى تفكيره وحكمه وحل مشكلاته الخاصة » (٢٤) .

وبعـــد أن تحدثنا عن سبيل التجديد ينبغى أن نتعرف على أسســه .

رابعاً أسس التجديد :

لقد ذكر فيلسوفنا إقبال أموراً هامة تعتبر أسساً ينبغى مراعاتها فى التجديد ، وتعد ركائز أساسية يرتكز عليها ، من هذه الأمور ما يلى :

١ — ضرورة التوفيق بين مراتب الدوام والتغير ، ويوضح ذلك إقبال فيقول : « إن المبدأ الروحى الأول لكل حياة (وهو الذات الإلهية) مبدأ أبدى يرينا الآيات الدالة

عليه فى التنوع والتغير ، والمجتمع الذى يقوم على تصور الحق على مثل هذا الوجه لابد له من أن يوفق فى وجوده بين مراتب الدوام والتغير . فلابد أن يكون له مبادئ أبدية تنظم حياته الجماعية وتضبط أموره ، وذلك لأن الأبدى الخالد يثبت أقدامنا فى عالم التغير . ولكن إذا فهمنا أن المبادئ الأبدية تستبعد كل إمكان للتغير فإن هذا الفهم يجعلنا ننزع إلى تثبيت ما هو أساساً متغير فى طبيعته » (٢٥) . وفى رأيه أن عدم اتخاذ مبادئ ثابته لتنظيم الجماعة يؤدى إلى الإخفاق فى السياسة والاجتماع كما حدث فى أوربا . وكذلك فإن التمسك بالمبادئ الثابتة واستبعاد كل إمكان للتغير يؤدى إلى الجمود والركود كما حدث لدى المسلمين فى القرون الخمسة الأخيرة قبيل النهضة الحديثة .

وإذن فلابد — لكى نتجنب الإخفاق الذى وقعت فيه أوربا ، وتتخلص من الركود الذى سيطر على حياة المسلمين فى فترة التدهور — أن نوفق بين مراتب الدوام والتغير ، بمعنى أن تكون لنا مبادئ ثابته لا تتغير نحتكم إليها ونرتبط بها ونحن نسعى للتغير . .

٢ — يجب أن يبدأ التجديد — كما يقول إقبال — بإعادة النظر فى التراث العقلى الذى تكون حول الإسلام . (٢٦) .

وهذا التراث العقلى هو الفهم البشرى الذى انتهت إليه جهود العقول فى هذه الحقب السالفة ، وفاء بمسئولية هذه الأجيال السالفة تجاه دينها .

وفى رأينا أن إقبالا يريد بذلك تمحييص التراث تمحيصاً يكشف عما فيه من أفكار جيدة ثمينة فنبنى عليها ، كما يكشف عما فيه من أفكار خاطئة أو لم تعد صالحة لنا فنعدل عنها .

ومعنى هذا أن تقف من تراثنا وقفة نقدية فاحصة حرة نختار منه ما نراه صالحاً ، ونرفض منه ما لا نراه كذلك .

ولعل إقبالا بذلك يرى أنه ليس فى استطاعة أمة أن تتنكر لماضيها تتنكراً تاماً ، لأن الماضى هو الذى كيف شخصيتها الحاضرة ، وما دامت الأمة لا تستطيع فى نظره — أن تتنكر لماضيها فلابد إذن أن تتمسك بتراثها وتعتز به ، وأن تفحصه لتكشف ما فيه من كنوز ثمينة ، لتكون هذه الكنوز ركيزة لها نرتكز عليها فى انطلاقها إلى حياة جديدة وفى بنائها نظاماً فكرياً جديداً .

٣ — يرى إقبال أنه لابد فى التجديد أيضاً من أن نأخذ بعين الاعتبار ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور نواحيها المختلفة ، وأن نستفيد من الفكر الأوربى الحديث خاصة وأن الثقافة الأوربية ليست إلا ازدهاراً لبعض الجوانب الهامة فى ثقافة الإسلام .

ولكن إقبالا لا يعنى بذلك تقليد الفكر الغربى تقليداً أعمى ، والأخذ بجميع مناهجه فى الحياة ، وإنما يقف منه موقفاً نقدياً ممحصاً .

يقول إقبال « لابد من أن يصاحب يقظة الإسلام تمحيص بروح مستقلة لنتائج الفكر الأوربى ، وكشف عن المدى الذى تستطيع به النتائج التى وصلت إليها أوربا أن تعيننا فى إعادة النظر فى التفكير الدينى فى الإسلام ، وعلى بنائه من جديد إذا لزم الأمر » (٢٧)

ولا شك فى أن هذا التمحيص سوف يكشف عن الجوانب المشرقة والأفكار البناءة التى قد تفتح لفكرنا مسالك جديدة ، دون أن تؤدى إلى انحرافه كما سيكشف عن الأفكار الهدامة التى ينطوى فى باطنها عامل الهدم ويكمن فى داخلها الالحاد ، وعندئذ نأخذ الأولى ونستفيد منها ، ونرفض الأخرى ونصون فكرنا منها .

ومعنى هذا أنه ينبغى أن نتخذ المثل السائر « خذ ما صفا ودع ما كدر » نبراساً لكل عمل وجهد فى سبيل تقدم حضارتنا وثقافتنا . (٢٨) .

٤ — لابد فى التجديد كذلك من الاستضاءة بالواقع وحقائق التجربة ، إذ لا يكفى الاعتماد على تفكير الفقهاء المتفلسين . (٢٩) .

ومعنى هذا لا ينبغى الاعتماد على الفكر النظرى المجرد والالتزام بما قاله السابقون ، بل لابد من إعادة النظر فى مثل هذا الفكر من خلال التجارب الواقعية ، فإذا أثبتت التجارب خطأ فى جوانب من هذا الفكر فينبغى أن نعدل عنها .

وهذا الرأى الذى يذهب إليه إقبال ليس بدعاً ، فقد ذهب من قبله الإمام الجوينى إلى مثل هذا الرأى ، إذ أسقط شرط القرشية فى الخلافة نتيجة لحقائق التجارب فى الحياة وما أسفرت عنه من الاضمحلال السياسى الذى أدرك قريشاً وما نشأ عنه من عجزها عن حكم العالم الإسلامى . (٣٠) .

وهذا يؤكد صحة المبدأ الذى يرى ضرورة الاستضاءة بالواقع وما أثبتته التجارب من حقائق :

هذه هى أهم الأسس التى ينبغى مراعاتها فى التجديد . وقد لاحظنا أن إقبالا يرى ضرورة الجمع بين القديم والجديد ، بين التراث الذى تركه الآباء والأجداد والذى تتمثل فيه أصالتنا ومقوماتنا ، وبين ما يمكن أن ننتقيه من الفكر الأروبى ونظرياته .

والحق أن هذا الموقف المعتدل والمتزن الذى يقفه إقبال يتسم بالوعى واليقظة ، ويصدر عن روح مليئة بالوفاء والإخلاص . الإخلاص المصحوب بالإيمان والاعتزاز بالإسلام وما له من قيمة فى الحياة (٣١) .

وينبغى أن ننبه إلى أن التجديد يعتبر — فى نظر إقبال — عملا شاقاً يتطلب أفقاً واسعاً ، وعملا بصيراً ممحصاً ، وفهماً لغايات الإسلام ومراميه ، ومعرفة بتاريخ الفكر والحياة فى الإسلام .

ولا شك أن ذلك يجعل من يقوم بالتجديد بمنجاة من المخاطر التى قد ينزلق إليها :

إن إقبالا لا يحذر من الاندفاع والتحمس الذى لا يعرف الحدود ، ولذلك يقول « إن لحظة ظهور الأفكار الحرة فى الإسلام أدق اللحظات فى تاريخه ، لأن حرية الفكر من شأنها أنها تنزع إلى أن تكون من عوامل الانحلال ، أضف إلى هذا أن زعماء الإصلاح فى الدين والسياسة قد يجاوزون فى تحمسهم لتحرير الفكر الحدود الصحيحة للاصلاح إذا انعدم ما يكبح جماح حميتهم الفتية ، ونحن نمر الآن بعهد شبيه بعهد ثورة الإصلاح البروتستنتى فى أوربا ، فينبغى ألا يضيع سدى ما تعلمناه من قيام حركة لوثر ونتائجها . .

والواجب على قادة الرأى فى العالم الإسلامى اليوم هو أن يفهموا المعنى الحقيقى لما حدث فى أوربا ، وأن يسيروا قدماً نحو غايات الإسلام ومراميه مع ضبط النفس والبصيرة الثاقبة » (٣٢) .

ومن الواضح أن إقبالا كان يحذر بذلك بعض المسلمين الذين افتتنوا بحركة « مارتن لوثر » الإصلاحية فى أوربا المسيحية ، وتمنوا أن تحدث فى الإسلام ثورة شبيهة بتلك الثورة التى قام بها لوثر .

هذه الجوانب التى تتصل بقضية التجديد فى الفكر الإسلامى تبرز أهم الملامح التى تشكل الأسس التى يقوم عليها منهج التجديد عند المفكر المسلم محمد إقبال الذى كان يسعى فى تجديده إلى تقديم فكر جديد يجمع بين الأصالة والمعاصرة ، ويوائم بين القديم والجديد حتى يجد فيه كل مسلم حاجته ، وحتى يظل الإسلام مصدر توجيه للمسلم المعاصـــر .

* * *

الهوامش :

(١) الأستاذ أبو الحسن الندوى : روائع إقبال ص ١٥ .

(٢) الدكتور عبد الوهاب عزام : محمد إقبال . سيرته وفلسفته ص ٢٧ .

(٣) هناك علاقة وثيقة بين المصطلحين حيث أن التجديد يتضمن الإصلاح ، والإصلاح يشتمل على تجديد ، وإن كان معناهما ليس واحداً . انظر رسالتنا للدكتوراه : (فلسفة إقبال ودورها فى تجديد الكفر الإسلامى) ص ٣٧٤ مخطوطة بمكتبة كلية دار العلوم .

(٤) محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام . المقدمة ص ٢ .

(٥) انظر كتابنا : دراسات فى الفكر الإسلامى الحديث ص ١٣٢ . ط

(٦) انظر محمد إقبال : تجديد ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٧) راجع كتابنا دراسات فى الفكر الإسلامى الحديث ص ٩٧ .

(٩) إقبال : ديوان الأسرار ص ٤٥ ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام .

(١٠) راجع دراسات فى الفكر الإسلامى الحديث ص ١٠٩ .

(١١) انظر : الدكتور : فى الفلسفة الإسلامية ص ٣٩ للدكتور محمد كمال جعفر .

(١٢) إقبال : تجديد ص ٣ .

(١٣) السابق ص ٦٦ .

(١٤) أيضاً ص ٢١ .

(١٥) انظر رسالتنا للماجستير المشار إليها سابقاً تطور المذهب الأشعرى على يد الباقلانى ص ٢٥٨ .

(١٦) تجديد ص ١٩١ .

(١٧) السابق ص ١٤١ .

(١٨) إقبال : تجديد ص ١٨٩ .

(١٩) السابق ص ١٨٠ .

(٢٠) السابق ص ١٧١ .

(٢١) أيضاً ص ١٧٢ وما بعدها .

(٢٢) للتوضيح انظر رسالتنا للدكتوراه فلسفة إقبال ودورها فى تجديد الفكر الإسلامى ص ٣٨٢ .

(٢٣) تجديد ص ١٩٣ .

(٢٤) السابق أيضاً .

(٢٥) إقبال تجديد ص ١٧٠ .

(٢٦) السابق ص ١٧٦ .

(٢٧) ص ١٤ .

(٢٨) الدكتور محمد إسماعيل الندوى : نظرات جديدة فى شعر إقبال ص ١١٩ .

(٢٩) إقبال : تجديد ص ١٨١ .

(٣٠) الجوينى : الإرشاد ص ٤٢٧ .

(٣١) انظر رسالتنا للدكتوراه : فلسفة إقبال ودورها فى تجديد الفكر الإسلامى ص ٣٩٠ .

(٣٢) إقبال : تجديد ص ١٨٧ .